

تصحيح أكبر خطأ
في تاريخ الإسلام الحديث

السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية

أنور الجندي

دار الاعتصام

تصحيــح أكبر خطــأ
فى تاريخ الاسلام الحديث

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

تكشفت فى السنوات الأخيرة حقائق كثيرة كانت خافية وأذيعت أسرار كثيرة ظلت فى طى الكتمان اعواما وأجيالا . وقد كان لظهور هـذه الحقـائق والأسرار أثرها البعيـد فى مجالات مختلفة وأمور كثيرة وكان أبرز هـذه الوثائق « بروتوكولات صـهيون » وكانت قد أصبحت كالمسلمات مما استدعى اعادة النظر فيها ومراجعتها من جديد . وكان أبرز هذه الأمور ما اعترض تاريخ الاسـلام الحديث من مواقف ارتبطت بالدولة العثمانيـة والصهيونية العالميـة ومحاولة استيلاء اليهود على فلسطين ، ففى خلال هذه الفترة من حياة الدولة العثمانية كانت المطامع المتضاربة بين الدول الغربية من ناحية والصهيونية العالمية من ناحية أخرى قد عملت على حجب كثير من الحقائق وتزييف جانب آخر منها فى محاولة عاتية لتمزيق الوحدة الاسلامية وللادالة من الخلافة الاسلامية ولفتح الطريق للقـوى الصهيونية الى فلسـطين واقامة الحواجز الاقليمية العميقة بين أجزاء العالم الاسلامى وخاصة بين أقطار البلاد العربية وذلك حتى تتمكن هذه القوى الجديدة من الوثوب والسيطرة باعتبارها شريكا للاستعمار الغربى وبديلا عنه من خلال مطمع عقائدى يرتبط بأرض الميعـاد وبتاريخ قديم لليهود متصل بها ومن خـلال هذه المحاولات

الواسعة زيف تاريخ الاسلام الحديث ووضعت خطط وكلمات ومصطلحات أصبحت بمثابة المسلمات التى رددتهـا كتب المدارس وابحاث الجامعـات ومقالات الصحف على انهـا التصور الحقيقى للأمور وكلهـا تقول : بالسلطان الأحمر والاستعمار التركى والاستبداد العثمانى والصراع بين العرب والترك والقومية الطورانية . ومن هنا نشأ تصور ما زال مطروحا فى أغلب كتب التـاريخ والأدب العـربى وخاصة فى المناهج المدرسية والجامعية قوامه :

١ — ان السلطان عبد الحميد كان رجلا مستبدا ظالما ، وانه كان يلقى خصومه بالعشرات فى الدردنيل وكانت له قوى ضخمة تشتغل بالجاسوسية وتصادر الحريات .

٢ — ان الدولة العثمانية كانت دولة مستعمرة سيطرت على البـلاد العربية بالقوة **وجنت اليهـا ثمرانها وتركت تلك البلاد فقيرة ضعيفة .**

٣ — ان الاتحاديين فى الدولة العثمانية كانوا قوة تقدمية عصرية بينما كانت القوى الأخرى **قوى** رجعية متخلفة .

٤ — ان دعوة السلطان عبد الحميد الى الوحدة الاسلامية كان قد تجاوزها الزمن وفات أوانها وان الدعوات القومية كانت **هى** أسلوب العصر .

منذ أن عقد مؤتمر بال فى سويسرا عام ١٨٩٧ بزعامة الصحفى اليهودى هرتزل وبعد صدور كتاب الدولة اليهودية بقلمه كان قد انفتح مجال جديد للعمل فى مواجهـة العالم الاسلامى لشق الطريق الى فلسطين لاقامة وطن قومى لليهود

بها من خلال مخطط القوى الاستعمارية التى كانت قد انطلقت منذ ١٧٩٩ الى مصر تحت اسم الحملة الفرنسية ثم الى الجزائر ١٨٣٠ ثم الى مصر مرة أخرى ١٨٨٢ والى تونس قبل ذلك بعام واحد ، وفى هذه المرحلة كان الصراع قويا بين **الاستعمارين** الفرنسي والانجليزى فى المنطقة التى تضم الدولة العثمانية التى كانت تمثل الوحدة العربية التركية — ولكى تكتمل الصورة فان هولندا كانت قد سبقت ذلك بوقت طويل بالاستيلاء على الملايو وجاوه وما يطلق عليه الآن اسم أندونيسيا وكانت بريطانيا قد احتلت الهند وكانت أجزاء من الخليج قد سقطت فى أيدى اسبانيا والبرتغال ثم ورثتها بريطانيا وكان هذا كله جزءا من مخطط الاستعمار الغربى الحديث الذى تكامل فى نهاية الحرب العالمية الأولى بايقاع الصراع بين العرب والترك فى المناطق العربية (الحجاز والشام والعراق) وحلول فرنسا وانجلترا بدلا من الدولة العثمانية فى هذه المناطق بعد معركة أدارتها انجلترا بقيادة لورنس الذى وصف فى يوم من الأيام بأنه ملك العرب غير المتوج .

كان المخطط معدا لأن تعطى فلسطين فى هذا المسرح الذى مثلت عليه هذه الرواية كلها للصهيونية العالميـــة . وان استيلاء بريطانيا على فلسطين عام ١٩٤٨ كان تمهيدا لأن تقع بما فيها بيت المقدس فى أيدى اليهود .

ومراجعة الأحداث تنبىء بهذا التخطيط الواسع البعيد المدى الذى بدأ منذ وقت باكر يسبق لقاء هرتزل السلطان عبد الحميد . وهو فى حقيقته صراع بين ارادتين . الارادة الأولى : هى ارادة السلطان عبد الحميد الذى تولى الملك فى الدولة العثمانيـــة عام ١٨٦٨ والذى قاد حركة كبرى فى سبيل الوحدة فى مواجهة الاستعمار تحت اسم الجامعة

الاسلامية لتعمل مع جميع مسلمى العالم خارج نطاق الدولة العثمانية ولتوحد كل القوى والمذاهب والأقطار .

ولا ريب كانت هذه الحركة مضادة لارادة أخرى كانت تستهدف تمزيق الدولة العثمانية نفسها وليس لتمكينها من أن تجمع اليها أقطار المسلمين الأخرى التى فى خارجها ولذلك كان النضال عميقا وكان الصراع شديدا فقد تكاتفت القوى الغربية كلها فى سبيل السيطرة على البلاد الاسلامية وتقسيم الامبراطورية العثمانية بعد أن عمدت الى انهاكها **سنوات عدة بالحروب والمؤامرات** وحين باتت لقمة سائغة جاء السلطان عبد الحميد **ليعقد الخناجر على مقاومة الاستعمار** ولذلك كان لابد من ازاحته ، كذلك فان اليهودية العالمية كانت ترى أن الدولة العثمانية هى مدخلها الى فلسطين وكانت تعد العدة منذ وقت بعيد فى بؤرة خطيرة داخل تركيا هى سالونيك التى كانت تتجمع فيها (الدونمة) أولئك الذين دخلوا الاسلام تقية ، من يهود أسبانيا الذين هاجروا بعد خروج الحكم الاسلامى منها ، والذين كانوا قد أنشأوا المحافل الماسونية لاعداد خطة الانقضاض على الدولة العثمانية . والذين استطاعوا احتواء جماعة الاتحاد والترقى والتغلغل فيها والسيطرة عليها ومن ثم استطاعوا بها اقصاء السلطان عبد الحميد واسقاط مشروعه والقيام على الدولة لتمزيقها والقضاء عليها ، ولا عجب ففى ظل حكم الاتحاديين بعد اسقاط عبد الحميد منذ عام ١٩٠٩ الى ١٩١٨ هزمت الدولة فى الحرب العالمية وسلمت طرابلس الغرب الى ايطاليا وفتحت الطريق أمام اليهود الى فلسطين .

هذه المرحلة الدقيقة الخطيرة من تاريخ الاسلام فى العصر الحديث ما زالت تشوبها الشوائب وتحول قوى كثيرة دون

الكشف عن حقائقهـا ، وما زالت الصـورة التى رسمتها الصهيونية والاستعمار لهـا هى الصـورة الرسمية القائمة فى كتب المدارس والجامعـات بالرغم من الحقـائق الكثيرة التى تكشفت والتى ازاحت الظلم عن وجه الرجـل الكريم السلطان عبد الحميد وعن **موقفه** .

والحق انه ليست هنـاك شخصية فى تاريخ الاسـلام الحديث هوجمت بمثل ذلك العنف والتعسف الذى هوجم به السلطان عبد الحميـد حتى كشفت الوثائق فى السنوات الأخيرة ليس **عن براءته** بل عن بطولته ومن عجب أن أبرز النصـوص التى أحقت الحق ، جاءت فى مذكرات هرتزل التى نشرت باللغة العربية .

ولنعد الى حقيقة الصراع بين القوى الاسلامية بقيادة عبد الحميـد وبين القـوى الاستعمارية واليهودية لنعرف مدى ما حققه اسـقاط عبد الحميد تمهيدا لالغـاء الخلافة الاسلامية .

لكى نعرف حقيقة حركة الوحـدة الاسلامية الجامعة التى قام بها عبد الحميد يجب أن نتصور بوضوح واقع الدولة العثمانية والعالم كله خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر وقد بلغت الدولة العثمانيـة أشـد مراحل الضعف وقد تجمعت الدول الغربية على وضع الخطط للقضاء عليها وتمزيقها واذلالهـا . وقد كانت روسيا وبريطانيا والمانيا وفرنسا جميعا بالاضافة الى البابوية تشترك فى رسم هذه الخطط وفى انتزاع الأجزاء الأوروبية من الدولة واسترجاعها والاستعداد لتقسيم الأجزاء العربية فى **الدولة وهى** الشام والعراق والجزيرة العربية .

وكانت مخططات الصهيونية العالمية تركز تركيزا شديدا على الدولة العثمانية من أجل الوصول الى فلسطين وتحقيق حلمها فى اقامة هيكل سليمان . فلما ولى السلطان عبد الحميد الحكم خليفة للمسلمين وسلطانا للدولة العثمانية واجه الموقف على نحو يختلف عما واجهه به سلاطين آل عثمان الذين سبقوه وكانت مواجهته جادة حاسمة . كان احساسه بالتبعية كبيرا وكان ذكاؤه وسعة فكره والمامه بالتيــارات المختلفة بالغا ، ومن هنا فقد جرى من الأحداث فى طريقها المرسوم شوطا ثم لم يلبث أن وضــع خطتــه المحكمة التى رأى أنها الطريق الوحيد لمواجهة الغزو الاستعمارى الزاحف والذى كان قد تشكل داخل الدولة العثمانية فى مؤسستين خطيرتين . احداهما : المحافل الماسونية فى سالونيــك وتركيا الفتــاة التى سميت بعد (الاتحاد والترقى) والتى ضمت مجموعة من المثقفين ثقافة غربية ومن اصحاب الولاء الفكرى الغربى وخاصة الفرنسى ومن الذين اغروا عن طريق المستشرقين وكتاب الغرب بأنه لا سبيل امام الدولة العثمانية لكى تصل الى التحرر والقوة الا بالتماس مناهج الغرب التماسا كاملا وطرح فكرها واسلوبها ومنهجها الاسلامى القديم والتخلص منه الى غير رجعة ، غير أن هذه الجماعة لم تستطع أن تقف وحدها فالتمست العون من المحافل الماسونية ومن ثم احتوتها الحركة الصهيونية وسيطرت عليها ووجهتها الوجهة التى ارتضتها فى القضاء على الدولة العثمانية وكان السلطان عبد الحميد قد حدد هدفه فى مواجهة النفوذ الغربى على هذا النحو : ان الوسيلة الأساسية لمواجهة النفوذ الاستعمارى هى تجمع المسلمين فى كل مكان تحت جناح الخلافة الاسلامية الذى تحمــل لواءه الدولة العثمانيــة الجامعــة فى كيانها بين العرب والترك ، ومن هنا فقد كان على السلطان العثمانى

الذى هو خليفة المسلمين ان ينادى المسلمين فى جميع انحاء الأرض أن يقفوا معه فى صف واحد فى مواجهة النفوذ الغربى ومن هنا كانت صيحته المعروفة المشهورة التى هزت الغرب كله : « يا مسلمى العالم اتحدوا » .

ومن **هنا** بدأ الخطر الذى واجهته الدول الأوروبية والاستعمار والبابوية والصهيونية العالمية فى عنف وأخذت فى التماس كل وسائل التآمر والغدر فى سبيل تحطيم الخطة والقضاء على القائم بها . ولكن السلطان عبد الحميد استطاع أن يصمد لذلك وقتا طويلا وانه كان قد بدأ هذه الحركة عام ١٨٧٩ على وجه التقريب فقد ظل يحمل هذا اللواء فى قوة فى مواجهة عواصف السياسة الأوروبية ثلاثين عاما كاملة دون أن يتزلزل أو يضعف .

لم يكن السلطان عبد الحميد يملك من القوة العسكرية ما يستطيع أن يواجه به أوروبا والغرب المتجمع باسم كلمة (لا اله الا الله) وتحت لواء الخلافة قوة عارمة خشيت بأسها اوروبا وحسبت لها ألف حساب ، فقد كان المسلمون الموالون للسلطان تحت النفوذ الغربى فى عديد من الأقطار التى احتلتها بريطانيا وفرنسا وخاصة قارة الهند يمثلون قوة روحية ذات أهمية خطيرة . ولقد مضى السلطان فى تنفيذ مخططه فى قوة وسرعة ، بحيث شملت الدعوة كل الآفاق الاسلامية وذاعت فى كل مكان وحملت معها عملا ايجابيا نافعا قوامه المدارس والمنشآت فى كل صقع من البلاد الاسلامية وكان قد أنشأ مدرسة للدعاة الذين سرعان ما انبثوا فى كل أطراف العالم الاسلامى الى الهند والصين وجزائر المحيط ومصر وأفريقيا وتركستان وأفغانستان وبلاد العرب وأطراف المملكة العثمانية ، كما عقد مع الأمراء فى شتى هذه

البقاع مراسلات وعقود وعمق روابط الود والاخاء الاسلامى فيما بينهم وبين دولة الخلافة حتى قيل انه لم يبق مسلم واحد لم يعرف طرفا عن هـــذه الدعوة . وقد جعـــل السلطان عبد الحميد أمامه أمرين هامين :

الأول : أن يكون اهل بلاد العرب هم ساقة هذه الدعوة وحملة لوائها ومن هنا فقد اتخذ فى كل قطر عربى « مشيرا » له فجمع حوله علماء وأمراء من الجزائر والشام ومكة ومنهم ابناء الأمير عبد القادر الجزائرى وغيره من أمراء المسلمين .

الثانى : هو انهاء الخلاف الذى أججه الاستعمار بين السنة والشيعة أو بين الأتراك والفرس وقد استخدم لذلك علامة كبيرا هو السيد جمال الدين الأفغانى وأجرى صلحا مع شاه فارس وصفى أمر الخلافات القديمة كلها .

ولم يتوقف عند هذه الحركة الفكرية وحدها انما جعلها واجهـــة لعمله الكبير الذى بداه فى بنـــاء القوة الحربيـــة والعسكرية وتقوية جيوشه وأساطيله فقد استخدم بعثـــة المانية ولم يلبث أن أنشأ معاهد عسكرية دخلها عدد كبير من الشبان الممتازين من شباب العرب من العراق وسوريا ومصر . وقد مضت الخطة الى غايتها المرجوة فاشتد عصب المسلمين بالترابط وتوحدت فكرتهم بالعمل الجامع ، وكان دعاة الفكرة الاسلامية ينشرون ثقافة جديدة قوامها مواجهة الاســـتعمار الغـــربى الزاحف والخطـــر الأوروبى القيصرى الصهيونى جميعا ، وتركزت الآمال حول السلطان عبد الحميد خليفـــة المسلمين وترابطت الدول الاسلامية واهلها حول عاصمة الخلافة على نحو بلغ غاية القوة (فكانوا يذكرون اسمه فى خطب الجمعة ويدينون له بالولاء والطاعة الروحية

وباسم خلافته على المسلمين كافة) وجعلهم من رعايا دول أوروبا فى الهند وجزر الهند الشرقية وشمال أفريقيا ، وكان السلطان على حد تعبير محمد رفعت باشا فى كتابه التوجيه السياسى للفكرة العربية « يفاوض الدول الكبرى ويساومها بل يهددها احيانا ملوحا بسلاح الجهاد الدينى ، واستطاع السلطان ان يجمع تحت لواء الدعوة ابرز المسلمين فى مجال الفكر والسياسة وفى مقدمتهم : خير الدين التونسى وجمال الدين الأفغانى وأبو الهدى الرفاعى الصيادى وابناء الأمير عبد القادر الجزائرى » .

واقام من العرب فرقة خاصة ضمها الى الحرس السلطانى وولى كثيرا منهم مناصب رئيسية فى الدولة وفى مقدمتهم احمد عزت العابد . وكان من اكبر أعمال السلطان فى هذا الصدد : انشاء سكة حديد الحجاز التى تربط بين دمشق والمدينة وكذلك فرعها الذى يربط بين الحجاز وبغداد وقد وجد هذا العمل تقديرا بالغا من المسلمين فى كل مكان وتبرعوا له بأكثر من ثلاثة ملايين من الجنيهات الذهبية ، فكان من اخطر المشروعات التى عجلت بالقضاء على السلطان فقد كان منذرا للغرب بتغيير اسلامى كبير . وقد استهدف فى الأغلب القضاء على دسائس الانجليز ومؤامراتهم فى البحر الأحمر والجزيرة العربية وكان من أخطر مواقف الحركة الاسلامية الواحدة التى دعا اليها وحمل لواءها عبد الحميد : هو معارضة أهداف الحركة الصهيونية فى السيطرة على فلسطين ومواجهتها .

ومن هنا انطلقت الصحافة الأوروبية وتابعتها الصحافة العربية التى ظهرت فى مصر والتى قاد حركتها خريجو الارساليات التبشيرية ، من أمثال : سليم سركيس وفارس

نمر ويعقوب صروف وفرج أنطون وغيرهم الذين حملوا لواء التشهير باللواء ومعارضته واشاعة الاتهامات المختلفة حول شخصيته وتصويره بتلك الصورة الرديئة لحساب الصهيونية العالمية التى انطلقت لاشاعة روح الكراهية والانتقاص للرجل بعد موقفه الحاسم الكريم من مطالبهم وكان أعظم ما تركز عليه هـــذه الحمـــلة اثارة عوامل الفتنة بين قيادة الحركة الاسلامية وبين العناصر المختلفة فى الدولة العثمانية وخارجها .

وكان أقوى من هاجم حركة السلطان عبد الحميد فى مصر اللورد كرومر الذى حمل على فكرة الجامعة الاسلامية حملة ضارية ودعا الدول الأوروبية فى تحريض سافر الى التجمع للوقوف فى وجه هذه الدعوة وكذلك هاجمها هانوتو الفرنسى واللورد غراى ووصفوها بأنهـــا بؤرة التعصب الدينى وانه ليس القصد منها الا تحدى قوات الدول الغربية المسيحية . وقد حملت جريدة المقطم فى مصر لواء معارضة هذه الدعوة .

ولقد شهد كثيرون بأصالة هذه الحركة وقوتها وأثرها ، يقول الدكتور توفيق برو : انها كانت كرد فعـــل للحركة الاستعمارية الأوروبية الطاغية وان قادتها كانوا من الدعاة المبرزين وقد أذكى نار هذا الشعور أئمة من أفاضل العلماء أمثال جمال الدين ومحمد عبده ومصطفى الغلايينى ورشيد رضا الذين قاموا باستغلال هذا الشعور فى سبيل سيطرة السلطان فى الداخل وتقرير مكانة الدولة فى الخارج .

وبعد فلقد كان السلطان عبد الحميد سياسيا قديرا وقرما من أقرام السياسة الدولية ولولا ذلك ما استطاع أن يصمد فى وجه هذه الرياح العاتية وكان قادرا على التعرف على مختلف التيارات والمؤامرات وكان يفهم أبعاد الخطر الداخلى

الذى يؤججه الاستعمار والصهيونية عن طريق حزب تركيا الفتاة وكيف تسيطر عليهم الماسونية العالمية وتوجههم لصالحها كما كان يعرف نقاط الضعف فى الدول الغربية وأوجه الخلاف بين بعضها البعض فيستغلها ويستفيد منها . ولست استطيع ان اصور هذا المعنى بأعظم مما صور به جمال الدين الأفغانى : الذى التقى بالسلطان ساعات ومرات وتدارس معه شئون العالم الاسلامى ومخاطر السياسة الأوروبية ومخططاتها . وذلك بعد ان قدم الى الآستانة قال : رأيته يعلم دقائق الأمور السياسية ومرأمى الدول الغربية وهو معد لكل هوة تطرأ على الملك مخرجا وسلما وأعظم ما ادهشنى ما أعده من خفى الوسائل وأمضى العوامل كى لا تتفق أوروبا على عمل خطير فى الممالك العثمانية ويريهـا عيانا محسوسا ، ان تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن الا بخراب يعم الأمم الأوروبية بأسرها . وقال : ان ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره واعداده العدة اللازمة لابطال مكايد أوروبا وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة قد دفعنى الى مد يدى له فبايعته بالخلافة والملك . أ. هـ .

ولقد اكد كثيرون من المؤرخين والباحثين فى انصـاف ان السلطان عبد الحميد كان آخر الحصون التى دافع بها الاسلام عن وجوده العالمى وبعد انهياره تمت مؤامرات الغرب وربيبته الصهيونية . ومن الحق ان يقال ان الحركة التى حمل لواءها السلطان عبد الحميد فى تجميع المسلمين تحت لواء الخلافة كانت اتجاها طبيعيا وأملا يملأ كل النفوس ، ولذلك فقد حققت نجاحا كبيرا ، أزعج الاستعمار والصهيونية ازعاجا شديدا مما استدعى العمل من جانبهم لاجهاضه والقضاء على حامل لواء الدعوة أصلا كوسيلة للقضاء عليها وتدميرها .

فى هذا الضوء يتمثل العمل الذى قامت به الصهيونية من جانبين :

أولا — من جانب الدونمة داخل الدولة العثمانية وخاصة فى محاصرة السلطان والتآمر عليه .

ثانيا — من ناحية الصهيونية العالمية فى التفاهم مع السلطان عبد الحميد واليأس منه واصدار القرار الحاسم بالعمل على اسقاطه .

أولا — الدونمة : هى القوة اليهودية الكامنة داخل الدولة العثمانية التى اختارت مدينة سالونيك ودخلت الاسلام بعد تاريخ طويل معروف ، وهى التى أنشأت المحافل الماسونية فى الدولة العثمانية لهذه الغاية واتصلت بجماعة الاتحاد والترقى (وحزب تركيا الفتاة) وافسحت له فى محافلها الفرصة للعمل ، وتلاقت الرغبات على التخلص من الوجه الاسلامى لتركيا ومن السلطان عبد الحميد وكان ذلك قد بدأ يأخذ طريقه بقوة منذ أعلن السلطان عبد الحميد دعوته الى المسلمين . وكانت قوى كثيرة تشارك اليهودية العالمية فى هذا الاتجاه وقد كان السلطان عبد الحميد يعرف هذه القوى التى يواجهها فى الداخل ويعرف المؤامرة التى تدبر لفكرته وله وكان يعرف أبعاد المخطط كله : فئة المثقفين الغربيين الذين سيطرت عليهم أفكار الثورة الفرنسية ربيبة المحافل الماسونية من ناحية وحركة الارساليات الأجنبية فى لبنان وثمارها المبثة فى مصر وسوريا والبلاد الاسلامية تحمل أحقادها على الاسلام والوحدة الاسلامية والمحافل الماسونية فى سالونيك . واذا كان السلطان قد عارض مدحت وحزب تركيا الفتاة فقد كان

عالما بأنهم واقعون تحت نفوذ الماسونية العالمية أداة الصهيونية العالمية فى ذلك الوقت وأن موقفــه دون تمكين اليهود من فلسطين قد حرض كل هذه القوى وأمدها باشارة الانقضاض. ان تصريحات كثيرة للسلطان عبد الحميد تكشف انه كان عالما بأهداف الصهيونية فى هذا الوقت المبكر ، ولذلك فقد كان وقوفه فى وجه الاتحاديين وتركيا الفتـــاة وعمله على تحطيم مخططاتهم ليس نابعــا من كراهية لنهضة الدولة العثمانية ولكنه كان عمقا فى النظرة الى الأهداف البعيدة لتدمير هذه القوة التى كانت تحمى آمال المسلمين داخل الدولة وخارجها .

ولقد صدقت نظرة السلطان عبد الحميد على الاتحاديين بعد أن دخلوا التجربة فعلا وسيطروا على الحكم من ١٩٠٩ الى ١٩١٨ وما قاموا به من تسليم كامل للدولة وتبعية كاملة لمخططات الاستعمار والصهيونية مما كشف أصالة عبد الحميد وبعد نظره وجلال موقفه الحاسم فى وجه النفوذ الاستعمارى نفسه بالدعوة الى الوحدة الاسلامية وفى نفس الوقت بمقاومة هذه التبعية التى كانت تحمل مظهرا براقا هو الاصلاح على طريقة الغرب بينما كانت تحمل فى أعماقها ايمانا بالفنــاء فى الغرب كله ، ولقد خدع المسلمون والعرب بالاتحاديين واقاموا الأفراح وسرعان ما اكتشفوا انهم سلموا أنفسهم الى فك الأسد وأنيابه . ان مقدرة عبد الحميد على فهم ما يحيط به كانت أكبر مما يظن كثيرون ولكنه كان فى موقف لا يستطيع معه ان يكاشف المسلمين بالأخطار التى تحيط به .

قد كان اليهود يرون فى السلطنة العثمانية شبحا مخيفا خطرا على مستقبلهم كما يقول الدكتور محمد على الزغبى فى كتابه الماسونية فى العراء ، وكانت الدونمة بكل مؤسساتها وتداخلاتها اداة التنفيذ فى الوقت المناسب .

ثانيا — بعد أن عقد مؤتمر بال ١٨٩٧ وكانت حركة الوحدة الاسلامية قد استحصدت ، كانت وجهة نظر اليهود هى اقتحام فلسطين ولذلك فقد تركزت الخطط حول الدولة العثمانية وحول السلطان عبد الحميد فى محاولة لاحتوائه ظنا منهم أنه فى ظرف من الضعف وفى حالة من الاستدانة تجعله يخضع للاغراء ، اغراء اليهود بالذهب وهم من قبل أصحاب العجل الذهبى ، وبدأت المحاولات منذ ذلك الوقت واتخذت وسائط كثيرة ووسائل متعددة منها وساطة الامبراطور غليوم ولقاء اليهود الثلاثة (مزراحى قراصو — جال — ليون) ولقاء هرتزل ومعه موشى ليوى حاخام اليهود فى الدولة العثمانية ولقاء السفير اليهودى غوش وهى سابقة على مقابلة اليهود الثلاثة ثم لقاء هرتزل للسلطان ولرجال قصره .

وقد عرض من خلال هذه المقابلات مشروع يرمى الى تقديم قرض للدولة العثمانية يبلغ خمسين مليونا من الجنيهات الذهبية وخمسة ملايين جنيه لخزانة السلطان الخاصة . بناء اسطول كامل للدفاع عن أراضى الدولة العلية .

وذلك فى مقابل السماح لليهود بانشاء مستعمرة صغيرة لهم قرب القدس ينزل بها أبناء جلدتهم .

وحتى لا نطيل والتفاصيل كلها موجودة والمراجع ثابتة : ننوه بالرد النهائى للسلطان عبد الحميد : بلغوا الدكتور هرتزل الا يبذل بعد اليوم شيئا عن المحاولة فى هذا الأمر (التوطن بفلسطين) فانى لست مستعدا أن أتخلى عن شبر واحد من هذه البلاد لتذهب الى الغير فالبلاد ليست ملكى بل هى ملك شعبى روى ترابها بدمائه . فليحتفظ اليهود

بملايينهم من الذهب فان الدولة العلية لا يمكن أن تختبىء وراء حصون بنيت بأموال أعداء الاسلام .

لست مستعدا الآن أتحمل فى التاريخ وصمة بيع بيت المقدس لليهود وخيانة الأمانة التى كلفنى المسلمون بحمايتها .

ان ديون الدولة ليست عارا لأن غيرها من الدول الأخرى مدين مثل فرنسا .

ان بيت المقدس قد افتتحه المسلمون أول مرة بخلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولست مستعدا أن أتحمل فى التاريخ وصمة بيعها لليهود وخيانة الأمانة . وقد أورد هرتزل فى مذكراته التى طبعت بالألمانية فى تل أبيب عام ١٩٢٤ قصة هذه المحاولات وقال بعد فشل المحاولة الأخيرة : ان السلطان عبد الحميد الشريف الفذ الذى اخفى عن المسلمين والعرب منذ عام ١٩٠٩ حتى سنوات قريبة عندما ترجمت مذكرات هرتزل وكان أول من اشار الى هـذا النص الأستاذ أحمد الشقيرى فى دروسه فى معهد الدراسات العربية بالقاهرة منذ عشر سنوات وقد ظل المسلمون والعرب خلال فترة لا تقل عن خمسين عاما يرمون الرجل عن قوس واحدة لأن الاستعمار والصهيونية والصحف العربية التى أصدرها تلاميذ مدارس الارساليات وخاصة فى مصر (المقطم ، الأهرام ، الهلال ، المقتطف ، مجلة سركيس) وعشرات من هذه الصحف كانت تصف عبد الحميد بالسلطان الأحمر المستبد . وقد انتقلت هذه العبارات من الصحف الى كتب التاريخ وكتب تاريخ الأدب العربى ، وما من كتاب أرخ هـذه الفترة الا احتوى على هذه العبارات التى أصبحت مسلمات بالاضافة

الى تعبير آخر سنعود له من بعد وهو « الاستعمار التركى العثمانى » .

كانت هــذه العبارات النارية التى وجههــا السلطان عبد الحميــد الى هرتزل عام ١٩٠٢ ايذانا بتلك الحمــلة العاتية على السلطان بعد أن تقرر ازاحته وكانت هــذه الحملات التى وجهت اليه تمهيدا واعدادا للراى العام لهذا الغرض . ولقــد جرت منذ ذلك الوقت محاولات لاغتياله واسقاطه حتى وقع ذلك عام ١٩٠٨ بالانقلاب الذى قام به الاتحاديون بالاشتراك مع الماسونية ممثلة فى الدونمة .

ولا تزال عبارات عبد الحميد نبراسا مضيئا وتاجا لامعا وشرفا ما بعده شرف ، يتوج جبينه فى تاريخه المعاصر ، وعند ربه ، ويتردد عنه ومن حوله كل الاشاعات والشبهات والأضاليل . وقد تبين من بعــد فى وثائق كثيرة وانكشف الستار عن مؤامرة قلب الدولة العثمانية وانزال عبد الحميد بالذات كخطوة أولى لتنفيذ هذه الجريمة البشعة . والمؤامرة العالمية لتحطيم الوحدة الجذرية والرابطة العضوية القائمة بين العروبة والاسلام . ولقد تحقق فعلا لليهود وللاستعمار باسقاط عبد الحميد كل ما كانوا يرجونه ولم تلبث الهجرة الى فلسطين أن بدات سافرة منذ ذلك الحين وتحقق ذلك الأمل الذى استعصى سنوات وسنوات ، وكان ذلك مقدمة لا شك فيها للقضاء على الخلافة الاسلامية .

ولقد كان ضروريا للباحث المتمهل المنصف أن يقف دائما من تاريخ الدولة العثمانية فى العصر الأخير موقف العــدل والصدق وأن يفرق بين عهدين : عهد السلطان عبد الحميد الذى انتهى عام ١٩٠٨ تقريبا وعهد حكم الاتحاديين الذى بدأ

منذ ذلك الوقت وظل مستمرا حتى اسلم أمره الى الكماليين بعد الحرب العالمية الأولى . فهذه التفرقة واضحة وضرورية خاصة بالنسبة لنا فى المشرق : ذلك أن سوريا ولبنان والعراق قبل ذلك تعيش فى هذا الاتجاه المعارض للخلافة والسلطان بينما كانت مصر التى سقطت عنها ولاية الدولة العثمانية وسيطر عليها الاستعمار البريطانى منذ ١٨٨٢ تؤيد الخلافة والسلطان . ولقد كان لموقف حكومة الاتحاد التركى من أهل سوريا ولبنان ومحاكمـــة رجالهم وتعليقهم على المشانق عام ١٩١٦ أثر نفسى بعيد فى نظرتهم الكليـــة الى الدولة العثمانية والحقيقة انها يجب أن تكون قاصرة على الاتحاديين وحدهم .

ومن هنا وجب التفريق بين مرحلة السلطان عبد الحميد التى انتهت عام ١٩٠٨ وهى فترة كان موقف الدولة العثمانية فيها بالنسبة للعرب والمسلمين موقفا كريما ، وكانت الحركة الاسلامية الواحدة من أعظم الأعمال ، أما الفترة التالية التى حكم فيها الذين اسقطوا السلطان فانها تمثل أسود صفحات الحكم التركى ولاء للصهيونية والاســـتعمار وضربا للوحـــدة الاسلامية واعلاء للحركة الطورانية ، ومحاولة لتتريك العرب فى سوريا وتعليق زعمائهم على المشانق ، هذه الفترة وحدها هى التى يقف فيها العرب من سوريا موقف الخصومة للترك وهى ليست من حساب الدولة الاسلامية العثمانية فى الحقيقة .

كذلك نجد أنه من الضرورى أن نصحح عبارة « الاستعمار التركى » أو العثمـــانى . والواقع أن كلمة استعمار كلمة مستحدثة مرتبطة الى حـــد كبير بدول مسيطرة بقوة الحديد

والنار تأخذ ثروات الأمم بأبخس الأثمان لتجعلها موارد خاما لمصانعها ثم تعيد الى هـذه الأمم منتوجاتها لتبيعها بأعلى الأسعار ، وهذا النظام الاستعمارى لم يكن موجودا فى هذه الفترة ولم تكن الدولة العثمانية بهذا المعنى دولة مستعمرة ، كذلك فان الأجزاء العربية التى انضمت الى الدولة العثمانية لم تكن قد انضمت باحتلال وقسر ولكنها كانت برضاء ودعوة ، فقد وجد العرب أنفسهم بعـد ضعف المماليـك فى حاجة الى الالتقاء تحت اسم الاسلام مع هذه الدولة الكبرى رغبة فى الوحدة ومحافظة على النفس . وبعد أن تعرضت سوريا ومصر لمحاولات غزو صليبى متجدد من الغرب ، والمعروف أن العرب فى مصر وسوريا قد رحبوا بالوحـدة الاسلامية العثمانية ولم يعارضوها حيث وجدوا فى العثمانيين اخوانهم فى العقيدة والدين منتعشا جديدا للاسلام . وقد اكد المؤرخون والباحثون أن هـذا الالتقاء بالعرب والترك فى ظل الدولة العثمانية قد حمى العالم الاسلامى اكثر من أربعمائة عام من الغزو الصليبى الذى لم يلبث أن جاء بعد ضعف الدولة العثمانية .

والواقع أن الدعوة الى الوحدة الاسلامية لم يتجاوزها الزمن ولقـد تبين للمسلمين اليوم بعـد سـنوات طويلة من الدعوات الاقليميـة والقومية أن الوحـدة الاسلاميـة

هى الأصل الأصيل والوجهة الصحيحة وكل الدلائل تؤكد الآن ان المسلمين سائرون الى طريق الوحدة الذى حطمته اليهودية والاستعمار باسقاط عبد الحميد والغاء الخلافة .

* * *

حاشية :

عندما عقـد الملتقى الاسلامى الثـامن فى ولاية بجاية من جمهورية الجزائر عام ١٩٧٤ وأثار كعادته فى كل عام عددا من القضايا والمعضلات التى تواجه الفكر الاسلامى فى العصر الحديث وقد اشترك فى الملتقى عدد كبير من الباحثين والعلماء من مختلف أنحاء العالم الاسلامى كما شارك فيه ممثلون للمسلمين فى الهنـد واليابان كانت أبرز القضـايا التى تناولها البحث :

ـ وضع الأقليات والجاليات عموما والاسلامية خصوصا فى كثير من بلدان القارات الخمس وواجب العلماء والمفكرين ورجال الاعلام نحوها .

وقد أشارت الدكتورة ليلى الصباغ من أساتذة التاريخ بجامعة دمشق الى الدولة العثمانية اشارة ظالمة حين قالت : انها اسلمت البلاد العربية لقمة سائغة للاستعمار الغربى . وقد تصدى لها عدد من الباحثين الجزائريين وعرضوا لوجهة نظرهم ازاء الدولة العثمانية والدور الكبير الذى قامت به ازاء حماية المغرب كله من الغزو الأوربى وتوالت المطالبة

بمعرفة دور المشرق وقد تصدى كاتب هذه السطور لذلك فقال :

رغبة فى تغطية قضية الدولة العثمانية بوجهة نظر المشرق والعرب ومصر بالاضافة الى وجهة النظر المغربية الجزائرية فى هذه المسألة نقول : لقد تأثرنا فى مصر والمشرق فى كتبنا المدرسية وأبحاثنا التاريخية بوجهة النظر الغربية تجاه الدولة العثمانية ، وهى وجهة خاصة للغربيين ، نتيجة التوسع التركى عرفتها مناطق البلقان وغيرها فى القرن التاسع عشر ، وقد نقل الاستعمار البريطانى فى مصر ، والفرنسى فى سوريا ، وجهة النظر هذه الى كتب التاريخ التى تدرس فى مدارسنا وجامعاتنا ، كما تأثر بهـا بعض مؤرخينـا متابعة للنظرة الغربيـة ، أو تحت تأثير الدعوات الاقليميـة كالفرعونية الفينيقية وغيرها **غير أن هذه النظرة تعمقت من بعد وبلغت أقصى غاياتها فى تجاوز الحقيقة ، على أثر ظهور الصحافة العربية التى حررها وأخرجها اللبنانيون المارون ، خريجو معاهد الارساليات ، وأصحاب العـداء الواضـح للدولة العثمانية .**

وزاد هذه النظرة عنفا وتعصبا : تلك المحاولة الخطيرة التى طرحتهـا الصهيونية العالمية بعد عام ١٩٠٢ لتشويه شخصية السلطان عبد الحميـد ورميه بالاتهامات كأمثال السلطان الأحمر والمستبد العثمانى وغيره ، وكلهـا كانت

محاولات أريد بهـا تهيئة الأذهان للقضاء عليه وانتزاعه من مكانه ، وقد عاونت المقطم والأهرام والهلال والمقتطف وكلها كانت لبنانية الأصل فى هذه الحملة وكان ذلك على اثر الموقف الحاسم الذى وقفه السلطان عبد الحميد من المحاولات المتصلة التى جرت خلال الأعوام السابقة لعام ١٩٠٢ والذى ارسل فيه السلطان خطابه التاريخى الى الصحفى اليهودى ثيودور هرتزل صاحب كتـاب الدولة اليهـودية ومؤسس الصهيونية الحديثة وقد جاء فى هذا الخطاب بالنص :

قولوا للدكتور هرتزل لا يتصل بى مرة أخرى ، ان بلادى تفضل أن تظل مدينة على أن تسدد ديونها من ذهب اليهود ، ان فلسطين هى بلاد العرب ولا أستطيع أن أفرط فى شبر منهـا .

وكان الدكتور هرتزل قد عرض على السلطان خمسين مليوناً من الجنيهات الذهب لخزانة الدولة وخمسة ملايين من الجنيهات الذهب لخزانة السلطان الخاصة الى مشاريع أخرى كثيرة تدعم الدولة العثمانية اقتصاديا .

وقد سجل هرتزل فى مذكراته كيف حاول اغراء ذلك الرجل الكريم أشد اغراء ثم كشفت وثائق التاريخ من بعد كيف جرت المحاولات لقتله ثم اسقاطه وقد أغرى أشد اغراء وهدد أشد تهديد ولكنه صمد صمودا مشرفا وظل موقفه هذا محجوبا عن الصحافة وعن المدارس والجامعات وكتب التاريخ سنوات طويلة حتى ترجمت مذكرات هرتزل فى السنوات الأخيرة ،

وظل اسم السلطان عبد الحميد يذكر فى كتبنا المدرسية مشفوعا بأبشع الاتهامات حتى أحق الله الحق وكشف ذلك الزيف الذى حاول به الاستعمار وحاولت الصهيونية ايقاع الفرقة والخلاف بين العرب فى مصر والشام وبين الدولة العثمانية .

وللحقيقة فاننا يجب أن نفرق بين عهدين فى تاريخ علاقتنا بالدولة العثمانية : فترة السلطان عبد الحميد التى تنتهى عام ١٩٠٨ باستيلاء الاتحاديين تلاميذ حزب الاتحاد والترقى واتباع الماسونية وربائب الدونمة وبين الفترة التالية التى استمرت حتى عام ١٩١٨ وهى الفترة التى تمثل أسود صفحات العلاقة بين العرب والترك ، وهى ليست من حساب الحكم التركى الاسلامى ولكنهـا مرحلة متقدمة لخدمة الصهيونية العالمية ونصرها وتشـكيل أول محاولة لضرب الوحـدة الاسلامية العربية ، باعلاء الدعوة الطورانية ، ومحاولة تتريك العرب فى سوريا وتعليقهم على المشانق ، هـذه الفترة وحـدها هى التى يقف منها العرب فى سوريا موقف الخصومة للترك وهى ليست من حساب الدولة الاسلامية العثمانية فى الحقيقة .

كذلك فان النظرة الى الدولة العثمانية عام ١٦١٩ عندما انضمت الأجزاء العربية فى العراق وسوريا ومصر اليها ، فانهـا فى التحليل التاريخى الدقيق ليست سوى التقـاء بين عنصرين مسلمين . وقد وجدت من جانب العرب تقبلا صادقا فهى ليست فى حقيقتها الا محاولة طبيعية من محاولات

الالتقاء والتكامل بين اجزاء العالم الاسلامى فى مواجهة الأخطار وقد جاءت هذه الوحدة الاسلامية بين العرب والترك على أثر ضعف قوى المماليك وتعرض الأجزاء العربية وخاصة الشام ومصر لتجدد الغزو الصليبى . والمعروف أن العرب فى مصر وسوريا قد رحبوا بالوحدة الاسلامية العثمانية ولم يعارضوها ، حيث وجدوا فى العثمانيين اخوانهم فى العقيدة والدين منتعشا جديدا للاسلام وقوة شابة بدوية مقاتلة رفعت راية الاسلام خفاقة عالية . **وقد أكد الباحثون أن هذا اللقاء بين العرب والأتراك قد حمى العالم الاسلامى أكثر من أربعمائة عام من الغزو الصليبى للمرة الثالثة .**

❊ ❊ ❊

ومن الحق أن يقال ان العثمانيين قد قاموا فى هذه المرحلة الأولى بالأخـذ بمفاهيم الاســلام فى نطاق الحكم وتحركوا من خلال اطاره . **ويشهد المؤرخون غير المتعصبين على الاسلام أو الناقمين على الدولة العثمانية بأن العثمانيين قد اقتفوا أثر الخلفـاء الأولين فى العـدل والتسامح وتمثلوا أعمالهم واتخذوهم قدوة وعملوا على جمـع القلوب اليهم بتقـدير العلماء وانشاء المساجد والمدارس** ومن هنا فقد جرت محاولات البحوث الاستعمارية على وصف العلاقة بين العرب والترك بأنهـا نوع من الاستعمار وهى ليست كذلك فى الحقيقـة وانما هذا من النظريات المدخولة التى يحاول الغزو الفكرى والتبشير اذاعتها لاقرارها فى الأذهان .

ولقد مرت الدولة العثمانية ككل كائن حى بمرحلة القوة ثم بمرحلة الضعف ، ولكن السلطان عبد الحميد كان يعرف أساليب الاستعمار ويواجهها فى دهاء وبراعة وقد شهد جمال الدين الأفغانى حين التقى به بأن عبد الحميد يدبر لأوروبا فى مواجهة كل محاولة ردا وفى مقابل كل مؤامرة أمرا .

لم يكن الخلاف اذن بين العرب والترك ولكنه كان بين العرب والاتحاديين دعاة الطورانية فلنفرق دائما بين هذه المراحل ولنعرف أنه قد نشأ فى مصر والبلاد العربية الآن تيار قوى لتصحيح هذه الأخطاء على ضوء ما كشفته الوثائق من بروتوكولات صهيون أو ما نشر عن مؤامرات الماسونية على النحو الذى يعيد الحقائق الى نصابها فى طريق وحدة الفكر الاسلامى المتجه الى وحدة الفكر الاسلامى كمقدمة للوحدة الاسلامية التى هى أمل المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .

انور الجندى

* * *

دار العلوم للطباعة
القاهرة ، ٨ شارع حسين حجازي (القصر العيني)
ت : ٣١٧٤٨

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٩/١٤٤٨
الترقيم الدولى ٦ ــ ٣١ ــ ٧٣١٨ ــ ٩٧٧